

"شهابية فؤاد بطرس"

إحتفال تكريمي نظّمته مؤسسة فؤاد شهاب

في 4 تشرين الأول 2016

كلمة الإستاذ سرّيس نَعّوم

شهابية فؤاد بطرس و "فلسفة العيش معاً"

بداية أشكر مؤسسة الرئيس فؤاد شهاب ورئيسها الأستاذ شفيق محرم لدعوتي إلى إلقاء كلمة في الإحتفال الوطني بعنوان "شهابية فؤاد بطرس". فالرئيس الراحل فؤاد شهاب يحظى اليوم بشبه إجماع لبناني على دوره في منع "ثورة 1958" من التحول حرباً طاحنة، في حين أن الذين خلفوه ومعهم الطبقة السياسية كلها لم يقوموا بما يجب من أجل منع تحول الحرب الأهلية التي لاحت نذرها في الأفق منذ عام 1969 حرباً أهلية طاحنة ذات جوانب طائفية ووطنية وقومية ودولية. وهو يحظى أيضاً بشبه إجماع على احترامه سيادة وطنه واستقلال دولته والمحافظة على كرامتها، وفي الوقت نفسه على واقعيته. وقد تجلّى ذلك في إصراره على الإجماع بالرئيس المصري جمال عبد الناصر في خيمة أقيمت على طرفي الحدود بين لبنان وسوريا العضو في ذلك الوقت في الجمهورية العربية المتحدة. كما تجلّى في اعترافه بأن للأزمة في لبنان إلى بعدها الداخلي بعدّ عربي، وبأن إيجاد حل لها يقتضي العمل

في اتجاهين. الأول بناء دولة مؤسسات عادلة تعامل أبناءها بمساواة واحترام وتستحق ولاءهم لها. والثاني طلب مساعدة الخارج النافذ في لبنان أو في قسم مهم منه كي يتمكن من بناء هذه الدولة. كما يحظى أخيراً باجماع على نزاهته وعلى اقتناعه بتحديث الحياة السياسية بل الطبقة السياسية وبتعزيز العيش المسيحي – المسلم في لبنان الواحد.

طبعاً لم يكن للراحل الرئيس شهاب مشروع واضح ومفصل لتحقيق أهدافه الوطنية السامية فانطلق من مبادئ عامة واقتناعات راسخة، وأعاد السياسة اللبنانية الى مرحلة الحزبين أو "الكتلتين السياسيتين" اللتين "حكمتا" لبنان قبل استقلال دولته وبعدها. فكان "النهج" الذي يضم السياسيين المؤمنين به. وكان فريق آخر يضم المعارضين له. واعتمد عليهما معاً لإحداث التغيير في البلاد. لكن النتائج لم تكن كما توقع لأسباب متنوعة.

وعندما انتخب حاكم مصرف لبنان في 1976 الياس سركيس تلميذ الرئيس شهاب رئيساً للجمهورية اعتبر كثيرون وأنا منهم أن "نيو شهابية" قد بدأت تتكون وربما تضع البلاد على طريق التعافي الوطني. وكان من أركانها من أدخله شهاب عالم السياسة وزيراً ثم نائباً المحامي فؤاد بطرس. لكن أوضاعاً كثيرة كانت تغيرت في لبنان والمنطقة فعاش الإثنان معاناة شديدة القساوة، ولم ينجحوا في وقف الحروب وإعادة بناء دولة المؤسسات التي بدأها شهاب. لكنهما لم يتخليا عن اقتناعهما الشهابية الوطنية.

طبعاً لن أقدم هنا دراسة تعدد الصفات الشهابية لمعلمي ثم صديقي الراحل فؤاد بطرس. فشهابيته كانت جزءاً من شخصيته وتفكيره من قبل أن يقرر شهاب استدعائه للعمل معه. ولعل ذلك كان سبب انسجامهما وتبادلتهما الثقة وتعاونهما في أثناء الولاية الرئاسية الشهابية الصرفة، ثم في أثناء الولاية الشهابية بالوكالة إذا جاز التعبير أيام الرئيس الراحل شارل حلو، ثم أيام النيو شهابية "السيئة الحظ" أيام الراحل الرئيس سركييس. لكنني سأذكر عدداً من مواقفه من قضايا عدة داخلية وخارجية وعدداً من ردود أفعاله على اقتراحات ومشروعات وهي التي ستؤكد شهابيته و"بطرسيته" في أن واحد. وليس في ذلك إمتهاناً للرئيس المؤسس ولا إدعاء ومحاباة لتمليذه، ولاحقاً لشريكه وشريكه وكلائه بعد تخليه عن السلطة رغم الاختلاف الكبير بينه وبينهم الذي أظهرته الممارسات وخصوصاً بعد وفاة شهاب.

أولاً: كان فؤاد بطرس مؤمناً بأن لبنان المتعدد الطوائف والمذاهب والديموقراطي والمستقل لا يمكن ان يقوم ويدوم إذا لم يؤمن شعبه بفلسفة "معرفة العيش معاً". وهو يختلف عن التعايش Coexistence والقواسم او الجوامع المشتركة. وقد مرّ لبنان باختبارات كثيرة يوم كان صغيراً مثل القائمقاميتين ثم متصرفية جبل لبنان، ويوم كبره الانتداب الفرنسي عام 1920، ويوم استقل عام 1943، تخللتها حروب دامية أودت بحياة آلاف القتلى وأوقعت آلاف الجرحى والمعوقين وتسببت بدمار كبير جداً. وهو الآن يعيش في خضم اختبار كبير توأكبه اختبارات وحروب في منطقته وعند أقرب جاراته إليه أو شقيقاته أي سوريا. وكان بطرس يأمل بعد انتهاء الاختبارات المشار إليها في اقتناع اللبنانيين بفلسفته "العيش معاً"، وبذلك يصبح لبنان فعلاً أنموذجاً لدول المنطقة التي تشبه مشاكل

معظمها مشاكل لبنان من حيث التعددية الأثنية والدينية والمذهبية ومن حيث الأنظمة الشمولية الديكتاتورية العسكرية والدينية والحزبية. ولا ينفي ذلك طبعاً واقعية الرجل أي فؤاد بطرس التي اعتبرها المتسببون في الحروب الأهلية اللبنانية وفي "جلب دببة" الخارج إلى بلادهم ثم تحولهم رهائن لها تشاؤماً. هذه الفلسفة لا تناقض الشهابية بل تعطيها مضموناً وطنياً ودولياً وخصوصاً أنها تسمح ببناء المؤسسات التي كانت من أهم انجازات فؤاد شهاب بل وبالمحافظة عليها. وهو الأمر الذي عجز عنه خلفه الراحل حلو والذي تجاهله الذين أتوا بعده إلى السلطة قبل اندلاع الحروب عام 1975 وفي اثنائها وبعد انتهائها عسكرياً فقط. كانت النتيجة الانهيار العملي لـ 20 أو 22 مؤسسة اقامها شهاب بسبب الفساد والمداخلات والمحاباة والمصالح وبقاء اثنتين فقط تعملان بكثير من الكفاءة هما الجيش ومصرف لبنان. علماً أن الاكتفاء بهما مؤذٍ جداً لأن العاملين فيهما لبنانيون عندهم "سوسة" الخوف والغضب والطائفية والحزبية والفساد. لكن قادة الأول و"قيادة" الثاني عملوا بكفاءة لحصرها وعدم انتشارها. ونجحوا حتى الآن. لكن "التفاحتين" الجيدتين لا بد ان تتعفنًا إذا بقيت سائر "التفاحات" في الصندوق معفنة. فؤاد بطرس عانى كثيراً في أثناء حكمه إذا جاز التعبير على هذا النحو .

ثانياً: كان فؤاد بطرس المستلم الملف اللبناني السوري يعرف أن للرئيس (الراحل) حافظ الاسد مشروعاً للبنان لا يتوافق مع سيادته واستقلاله ودولة القانون والاستقرار وأن عند اللبنانيين عدم فهم لفلسفته. فالمسلمون وأحزابهم عارضوه بشدة لإصرارهم على مشاركة متساوية في السلطة مع المسيحيين، ثم لإصرار حلفائهم العرب أي سوريا والفلسطينيين على استخدامهم لتنفيذ مخططاتهم "القومية" والاقليمية رغم التناقض فيما بينها أحيانا كثيرة. والمسيحيون عارضوه أيضاً وخونوه،

وكادوا ينجحون في التخلص منه بعد دسّ متفجرة كبيرة في منزله دمّرت جزءاً مهماً منه. لكنه نجا لعدم معرفة واضعيها أن منزله دوبلكس أي من طبقتين. أما العرب الذين ندبوا أنفسهم لمساعدة لبنان منذ قمتي الرياض والقاهرة عام 1967 فكانت مواقفهم محيرة وسلبية وتدفع الى الشك في النيات اللبنانية لسوريا والفلسطينيين وفي صدق حرصهم على لبنان. فأمين عام جامعة الدول العربية محمود رياض قال لبطرس بعد تولي سر كيس السلطة: "أن المقاومة الفلسطينية لا تستطيع ان تتنفس إلا في لبنان ولذلك لا يمكن أن نحدّ من تحركها". والرئيس المصري أنور السادات قال له: "فاتحني حافظ الاسد بالكونفيدريالية بين سوريا ولبنان والأردن والفلسطينيين وبرغبته في تحقيقها". ووزير خارجيته إسماعيل فهمي أبلغه: "أن العمل جار بصورة غير رسمية لخلق جو ملائم للكونفيدريالية لدى المواطنين والأحزاب السياسية". والسعودية "اشتترطت أمام بطرس أو عليه في أثناء مباحثات تطبيق إتفاق القاهرة حصول مسلمي لبنان على إصلاحات"، وأكدت تسليمها بدور سوريا في لبنان، وأشارت الى "أن سوريا لا تريد أجهزة لبنانية مناوئة لها". أما الكويت فقد حمّلتها بطرس بشخص أميرها الحالي الشيخ صباح الأحمد الصباح "مسؤولية عدم تطبيق إتفاق القاهرة وتردّي أوضاع لبنان عندما حال باسم دولته دون تطبيق اتفاق القاهرة". وفي حينه قيل أن سوريا كانت متحمسة لتطبيقه بنفسها. لكن ما توافر لاحقاً من معلومات أكّد أنها كانت تعلن ذلك لمعرفتها أن الرئيس سر كيس لن يقبل انفراد سوريا بحل مشكلة سلاح المخيمات الفلسطينية خوفاً من استخدامها ذلك للسيطرة التامة على لبنان.

ثالثاً: اعترف بطرس دائماً بضرورة التشاور مع سوريا والتعاون مع الأشقاء العرب رغم الاختلافات والشكوك. وقد صدم بذلك شخصية لبنانية مهمة سياسية – إعلامية اقترحت عليه عبر أحد

مساعديه الديبلوماسيين إقامة تفاهم مع عراق صدام حسين لمواجهة الأسد في لبنان. إذ رفض هذا الأمر جملة وتفصيلاً معتبراً أنه يدمر البلاد.

وبعد تسلّم الرئيس أمين الجميل سلطاته الرئاسية سمع بطرس انه ينوي بدء التعاون مع إسرائيل. فسأل: هل تشاور مع سوريا؟ وكان الجواب الذي قدمه وزير مهم في الحكومة (تشرين الثاني 1982): "ستسحب الجيوش الأجنبية كلها من لبنان قبل آخر السنة". فأجابه: "هل تعني بذلك الوحدات العسكرية الأجنبية العاملة في قوات الطوارئ الدولية جنوب لبنان؟" ردّ الوزير: "فيك تخبر هؤلاء أنهم بعد وقت قصير سينسحبون ولذلك "فليضربوا" أغراضهم استعداداً للرحيل". إلا أن مستشاراً مهماً للرئيس الجميل تابع مساعيه لإقناع تلميذ ديبلوماسي لبطرس بالأمر فدعاه الى عشاء حضره مسؤولان أميركيان مهمان وسمع منهما أن الانسحاب الأجنبي من لبنان حاصل في آخر كانون الأول. وكان العشاء في الثامن منه. طبعاً كان بطرس يعرف بذلك ويتألم.

رابعاً: حظي بطرس بتقدير الأسد الأب واحترامه. وكان يحرص على الاجتماع به قبل كل قمة يعقدها مع الرئيس سركييس. لكنه طبعاً لم يكن يرتاح الى مواقفه ومقارباته. فالتوجه إليه كمسيحي لم يكن ينفذ لأنه رغم مسيحيته كان يتصرف وطنياً وميثاقياً ولكن ليس كميثاقية هذه الأيام. والاصرار عليه لقبول أمور تمس لبنان أمنياً وسيادة أو استقلالاً لم ينجح يوماً. وقد عبّر عن انزعاجه للرئيس سركييس في حضوره (أي بطرس). فسأله لماذا يا فؤاد؟ كان جوابه: "فخامة الرئيس انت صاحب القرار وتستطيع ان تتخذ أي قرار تريد. لكن إذا مشينا بما يطلبه سيادة الرئيس فأنا سأستقيل من الحكومة". لم

تكن علاقته بعبد الحليم خدام جيدة لكن كان فيها احترام. أما مع الرئيس الحالي بشار الأسد فقد زاره سبع مرات وبحثا في العمق أموراً كثيرة. لكن نجاحا لم يتحقق. وفي آخر اجتماع على ما قال لي بطرس: "رافقتي بشار الى الباب ثم وضع يده على كتفي وقال بصوت خافت: "لا أستطيع أن أمشي بما تقترح. جماعتي لا يقبلون أو لن يقبلوا".

أخيراً أقول: فؤاد بطرس ارستقراطي الطبع لكنه صنع نفسه بنفسه. لم يكن شعبويا وربما شعبياً لانه في أعماقه كان رجل دولة. ولبنان يحتاج رجالاً كهؤلاء. ولذلك لم يتأثر عندما سقط في الإنتخابات النيابية، ولم يحاول العودة الى مجلس النواب رغم طرح الشهيد رفيق الحريري ذلك عليه بقوله انه حصل على موافقة دمشق. ولم يشجع ابنه على خوض السياسة. لكنه استمر مرجعية لزعامات لبنانية ودول أجنبية وعربية. ولعل جوابه للسفير سمير مبارك أحد تلاميذه ومساعديه عندما سأله ما هو طموحك بعد أن قمت بما قمت به للبنان يدل على معدنه وكان: "أطمح أن أكون أميناً عاماً للأمم المتحدة". في حين أن جواب "غريمه" السياسي في حينه على السؤال نفسه كان: "أريد أن أعمل وزير خارجية لبنان".

أخيراً أقول أيضاً أن فؤاد بطرس أزعج زملاء له في الحكومة بمن فيهم رئيسها إذ اعتبروه فوقيا أو سوبر وزير. وهو لم يكن كذلك، لكنه كان ينزعج جداً من الاحتراف المصلحي عند السياسيين ومن تحوّل الداخلين حديثاً "جنة السياسة أو جحيمها" وفي سرعة الى محترفين بالمعنى اللبناني طبعاً.

فهل يحظى لبنان بعد عقود من القحط بقامات كبيرة عالية، أي برجال دولة من طراز فؤاد شهاب وفؤاد بطرس والشهيد رشيد كرامي يجعلون من "فلسفة العيش معاً" دستوراً نهائياً للبنان الكيان النهائي؟

سر كيس نعو م